Sana'a University Journal of Human Sciences
مجلة جامعة صنعاء للعلوم الإنسانية
Vol. 5 | No. 2 | Page 646 – 665 |2026 |
https://journals.su.edu.ye/index.php/jhs
ISSN : 2958-8677

The Role of Art Education in Supporting Mental Health and Enhancing Students' Resilience in the Light of Forced Displacement: An Analytical Theoretical Study in Palestinian Society (2025)

Abdel Fattah Ahmed Ali Al-Kum[1,*]

[1] **Palestinian Ministry of Culture Tulkarem- Palestinian.**

***Corresponding author:** *montaser.1447@yahoo.com*

Keywords

1. Art Education
2. Stress and Anxiety
3. Post-Traumatic Stress Disorder
4. Displaced Students

Abstract:

The study deals with the analytical role of art education as a psycho-cultural support mechanism in enhancing the psychological resilience of Palestinian students who were subjected to forced displacement during 2025, with a focus on the Tulkarem, Nour Shams and Jenin camps, the study starts from the problem of the severe deterioration in the psychological safety of students in light of the continuous trauma resulting from the loss of housing and educational stability, and the decline in the effectiveness of traditional psychological counseling tools within displacement environments, and the study aims to analyze how expressive arts (such as painting, Coloring, murals, drama, and creative writing) play a supportive role in emotional release, rebuilding a sense of security, and restoring spatial and social identity, without claiming to achieve clinical healing or quantifying psychological impact.

The results of the analysis indicate that art education provides safe symbolic spaces that allow students to re-enact visually traumatic experiences, which contributes to organizing the psychological experience rather than canceling it, and promotes forms of symbolic and collective psychological resilience, and the study indicates that there is a differentiation in the Students' styles of artistic expression according to gender, a distinction that is explained within the context of the cultural context and socialization patterns prevailing in the Palestinian camps, and is not seen as innate or biological differences. The study also concludes that it is important to institutionalize art education within the strategies of psychological support in emergencies, as an educational-cultural practice that contributes to supporting mental health and enhancing psychological resilience in light of the reality of ongoing forced displacement.

Sana'a University Journal of Human Sciences
مجلة جامعة صنعاء للعلوم الإنسانية
Vol. 5 | No. 2 | Page 646 – 665 | 2026
https://journals.su.edu.ye/index.php/jhs
ISSN : 2958-8677

دور التربية الفنية في دعم الصحة النفسية وتعزيز الصمود لدى الطلبة في ظل النزوح القسري: دراسة نظرية تحليلية في المجتمع الفلسطيني(2025)

عبد الفتاح أحمد على الكم[1]*،

[1]. وزارة الثقافة الفلسطينية- طولكرم- فلسطين.

***المؤلف:** montaser.1447@yahoo.com

الكلمات المفتاحية

1. التربية الفنية
2. التوتر والقلق
3. اضطراب ما بعد الصدمة
4. الطلبة النازحين

الملخص:

تتناول الدراسة الدور التحليلي للتربية الفنية بوصفها آلية دعم نفسي/ ثقافي في تعزيز الصمود النفسي لدى الطلبة الفلسطينيين الذين تعرضوا للنزوح القسري خلال عام 2025، مع التركيز على مخيمات طولكرم ونور شمس وجنين، تنطلق الدراسة من إشكالية التدهور الحاد في السلامة النفسية للطلبة في ظل الصدمة المستمرة الناتجة عن فقدان الاستقرار السكني والتعليمي، وتراجع فاعلية أدوات الإرشاد النفسي التقليدية داخل بيئات النزوح، وتهدف الدراسة إلى تحليل الكيفية التي يمكن من خلالها للفنون التعبيرية (مثل الرسم، التلوين، الجداريات، الدراما، والكتابة الإبداعية) أن تؤدي دورًا داعمًا في التفريغ الانفعالي، وإعادة بناء الإحساس بالأمان، وترميم الهوية المكانية والاجتماعية، دون الادعاء بتحقيق شفاء سريري أو قياس كمي للأثر النفسي.

اعتمدت الدراسة على بطاقة تحليل مضمون بصري/ سردي بوصفها أداة نوعية لتحليل نماذج مختارة من الأنشطة الفنية التعبيرية المنفذة في سياقات النزوح القسري، كما وردت في تقارير تربوية ومبادرات فنية– ثقافية ودراسات حالة موثقة، وتشير نتائج التحليل إلى أن التربية الفنية توفر مساحات رمزية آمنة تتيح للطلبة إعادة تمثيل الخبرات الصادمة بصريًا، بما يسهم في تنظيم التجربة النفسية بدلًا من إلغائها، ويعزز أشكالًا من الصمود النفسي الرمزي والجماعي، وتشير الدراسة إلى وجود تمايز في أنماط التعبير الفني لدى الطلبة تبعًا للنوع الاجتماعي، وهو تمايز يُفسَّر في إطار السياق الثقافي وأنماط التنشئة الاجتماعية السائدة في المخيمات الفلسطينية، ولا يُنظر إليه بوصفه فروقًا فطرية أو بيولوجية، كما تخلص الدراسة إلى أهمية مأسسة التربية الفنية ضمن استراتيجيات الدعم النفسي في حالات الطوارئ، باعتبارها ممارسة تربوية/ ثقافية تسهم في دعم الصحة النفسية وتعزيز الصمود النفسي في ظل واقع النزوح القسري المستمر.

المقدمة:

يمثل النزوح القسري في فلسطين تجربة اقتلاع شاملة، تتجاوز في آثارها البعد المكاني المادي لتصيب العمق البنيوي للنفس البشرية، خاصة لدى فئة الطلبة الذين يمثل الاستقرار البيئي والمدرسي لديهم ركيزة أساسية للنمو النفسي والاجتماعي، وفي ظل التصعيد العسكري المستمر خلال عام 2025، واجه الطلبة الفلسطينيون في مخيمات طولكرم ونور شمس ومخيم جنين صدمات مركبة ومتلاحقة؛ شملت فقدان المأوى، واستشهاد الأقارب، والتدمير الممنهج للمؤسسات التعليمية، مما أدى إلى خلق حالة من "الاغتراب النفسي" وفقدان الشعور بالأمان الوجودي.

وسط هذا الواقع القاسي، تبرز الصحة النفسية للطلبة كقضية ملحة تتطلب أدوات تدخل غير تقليدية تتناسب مع حجم الصدمة المستمرة، وهنا، تبرز التربية الفنية ليس كنشاط جمالي ترفيهي، بل كمنفذ استراتيجي وضرورة وجودية، توفر لغة بديلة للتعبير عما يعجز اللسان عن وصفه، إن الفن في سياق النزوح يعمل على تحويل "خيمة الإيواء" من حيز مادي ضيق إلى مساحة استشفائية (Therapeutic Space)، تسمح للطالب بإعادة صياغة تجربته الأليمة وتمثيلها بصريًا، مما يسهم بشكل جوهري في التفريغ الانفعالي، وتقليل حدة اضطراب ما بعد الصدمة (Post-Traumatic Stress Disorder) (PTSD).

مخيمات طولكرم ونور شمس وجنين اليوم من أكثر المناطق سخونة في الضفة الغربية، حيث تشهد تحولات ديموغرافية ومكانية جذرية نتيجة العمليات العسكرية المكثفة التي تصاعدت بشكل غير مسبوق في عام 2025، لماذا طولكرم ونور شمس وجنين؟

تعتبر هذه المخيمات الثلاثة في شمال الضفة الغربية، وهي المنطقة المتصلة مع المناطق التي احتلت عام 1948 وبفصلها جدار الفصل العنصري، وتعاني من استهداف مكثف ومستمر، مما جعلها بؤرة دائمة للاقتحامات العسكرية الإسرائيلية بحجة تفكيك تشكيلات المقاومة، ولكن الهدف هو امتداد السيطرة على الأرض وبناء المستوطنات، يُنفذ الجيش الإسرائيلي مخططات تهدف إلى تغيير الطبيعة الجغرافية للمخيمات من خلال تجريف الشوارع، هدم البنية التحتية، وتحويل الأحياء المكتظة إلى مساحات مفتوحة أو طرق واسعة لتسهيل حركة آلياتهم العسكرية، مما يؤدي إلى طمس معالم المخيم كرمز لحق العودة ضمن سياسة مسح الذاكرة والجغرافيا، وترتبط أيضا هذه الهجمات بمحاولات إنهاء دور وكالة الأونروا وتحويل المخيمات إلى ضواحي أو قرى تابعة للمدن، لإسقاط صفتها السياسية كلاجئين والضغط على الأونروا، وكل ذلك بعد تفريغ وتهجير قسري لسكان المخيمات.

بحلول نوفمبر 2025، هَجَّر الجيش الإسرائيلي أكثر من 32,000 فلسطيني من مخيمات جنين، وطولكرم ونور شمس، في مخيمي طولكرم وحدها نزحت أكثر من 5,000 عائلة (قرابة 25,000 مواطن) النزوح القسري الواسع، تاركين خلفهم ذكرياتهم بيوتهم حاراتهم باحثين عن مساكن تأويهم في الاحياء القريبة او القرى او حتى خارج المحافظة بعد عملية التدمير الممنهج للمباني والبنى التحتية داخل المخيمات التي شهدت موجة هدم واسعة؛ حيث تعرض أكثر من 1,460 مبنى للتدمير الكلي أو شبه الكلي في هذه المخيمات الثلاثة، وفي مخيمي طولكرم

ونور شمس وحدهما، تم تدمير أكثر من 1,000 مبنى سكني، اعتمدت دولة الاحتلال سياسة الأرض المحروقة، ولا يقتصر الدمار على المنازل، بل شمل تجريف شبكات المياه والكهرباء والصرف الصحي، مما جعل المخيمات غير قابلة للحياة، حيث عاشت المخيمات نور شمس وطولكرم فترات طويلة دون مياه نظيفة، ان الحصار والعدوان والاقتحامات الطويلة التي شهدتها مدينة طولكرم ومخيماتها لا زال متواصلًا، ولا تزال المخيمات خالية من السكان، والنازحين من مخيم نور شمس وطولكرم يمنعون من العودة، بينما يضطر البعض للعودة فقط لإلقاء نظرة الوداع الأخيرة على منازلهم المهددة بالهدم الفوري أو لجمع ما تبقى من مقتنياتهم قبل أن تسويها الجرافات بالأرض، هذا الواقع المأساوي هو ما يجعل التربية الفنية وأنشطة التفريغ النفسي ضرورة قصوى؛ فالطلبة في هذه المناطق لا يعيشون "ما بعد الصدمة"، بل هم في صلب صدمة مستمرة واقتلاع دائم لهويتهم ومكانهم.

2. مشكلة الدراسة (Problem Statement) –

تعاني غالبية الطلبة الفلسطينيين في مخيمات طولكرم ونور شمس وجنين من تدهور ملحوظ في الصحة النفسية؛ نتيجة النزوح القسري المستمر خلال عام 2025، ولا يزال متواصلا، حيث تجاوز 350 يومًا، ويتجلى هذا التدهور في فقدان الشعور بالأمان الوجودي، واضطراب الهوية المكانية، الظهور المتكرر لأعراض مثل القلق الوجودي، اضطراب ما بعد الصدمة (PTSD)، الصمت الاختياري، والسلوكيات العدوانية، كما أشارت إليه الملاحظات الميدانية وتقارير دولية حديثة.

وتزداد المشكلة تعقيدًا بسبب محدودية فاعلية أدوات الإرشاد النفسي التقليدية داخل بيئات النزوح، نتيجة غياب بيئة صفية مستقرة، وشح الكوادر المتخصصة، وصعوبة التعبير اللفظي عن التجارب الصادمة لدى الطلبة. في هذا السياق، برزت التربية الفنية كأحد الوسائل القادرة على النفاذ إلى العالم النفسي للطلبة، من خلال إتاحة مساحات آمنة للتفريغ الانفعالي، وإعادة بناء الإحساس بالسيطرة والانتماء، غير أن المبادرات الفنية في المخيمات بقيت في معظمها ظرفية، دون تأطير نظري وتحليل منهجي لدورها في تعزيز الصمود النفسي.

وعليه، تتمحور مشكلة الدراسة حول الحاجة إلى فهم وتحليل الدور الذي تؤديه التربية الفنية، بوصفها أداة دعم نفسي–ثقافي، في تعزيز الصمود النفسي للطلبة النازحين ضمن بيئة النزوح القسري المستمر، باستخدام مقاربة نظرية تحليلية مستندة إلى أدبيات العلاج بالفن وتجارب التدخل الفني–التربوي.

3.أهمية الدراسة (Significance):

تستمد هذه الدراسة أهميتها من قدرتها على محاكاة الواقع الميداني الفلسطيني خلال النزوح القسري والعدوان المستمر في مخيمات طولكرم ونور شمس وجنين لعام 2025، حيث تسلط الضوء على التحديات النفسية والاجتماعية التي يواجهها الطلبة النازحون في ظل الصدمة المستمرة (Continuous Trauma)، وتقدم الدراسة الإطار النظري– التحليلي للتربية الفنية في مواجهة الصدمة المستمرة، وهو إطار يدمج العلاج بالفن وممارسات التربية الفنية التعبيرية، متجاوزًا المناهج التربوية التقليدية، ليتلاءم مع طبيعة الصدمة المستمرة في المجتمع الفلسطيني، ويوفر هذا

الإطار دليلًا عمليًا للمعلمين، والكوادر التربوية، والمنظمات الإنسانية والدولية مثل الأونروا واليونسيف، لتمكينهم من تصميم برامج تربوية–فنية قادرة على دعم الصحة النفسية للطلبة، وتعزيز الصمود النفسي، وتمكين الأطفال واليافعين من التعبير عن خبراتهم الصادمة بطريقة آمنة، وفعالة، ما يسهم في تطوير استراتيجيات تدخل تربوي–نفسي مستدامة في بيئات النزوح القسري.

4. أهداف الدراسة (Objectives):

تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق مجموعة من الأهداف المترابطة، تتمثل في:

تأصيل الإطار النظري لمفهوم الصدمة المستمرة في المجتمع الفلسطيني، وربطه بنظريات العلاج بالفن بوصفها مدخلًا داعمًا للصحة النفسية في بيئات النزوح القسري.

تحليل الدور النفسي للتربية الفنية في تعزيز الصمود النفسي لدى الطلبة النازحين، بالاعتماد على تحليل نوعي بصري–سردي لدراسات حالة فنية موثقة، من خلال رصد أنماط التعبير غير اللفظي، وتفسير الدلالات النفسية للرموز البصرية والتكوينات الفنية، بما يعكس عمليات تنظيم الانفعال، وإعادة بناء الإحساس بالأمان والسيطرة والمعنى.

مناقشة التمايز المحتمل في أنماط التعبير الفني المرتبطة بالصدمة النفسية بين الذكور والإناث، استنادًا إلى مراجعة الأدبيات المتخصصة وتحليل دراسات حالة منشورة، في ضوء السياق الثقافي وأنماط التنشئة الاجتماعية في المخيمات الفلسطينية.

تحليل المبادرات الفنية والثقافية التي نُفذت في مخيمات طولكرم ونور شمس خلال الفترة (2025)، بوصفها نماذج تدخل نفسي–تربوي غير تقليدي في سياق النزوح.

اقتراح استراتيجيات نظرية–تطبيقية لمعلمي التربية الفنية والعاملين في المجال الثقافي، تمكّنهم من توظيف الفن كأداة دعم نفسي فعّالة داخل مراكز الإيواء و«خيم الصف»، باستخدام موارد بيئية بسيطة.

5.منهج الدراسة:

تعتمد هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي ذات طابع كيفي، بوصفه المنهج الأنسب لدراسة دور التربية الفنية في تعزيز الصحة النفسية لدى الطلبة في ظل النزوح القسري في المجتمع الفلسطيني، ويقوم هذا المنهج على وصف وتحليل الظاهرة المدروسة في بيئتها الطبيعية، مع الاستناد إلى تدخلات فنية واقعية نُفذت ميدانيًا دون التحكم في المتغيرات أو استخدام أدوات قياس كمية معيارية.

ويتجسد البعد التحليلي الكيفي للدراسة في تحليل أثر الأنشطة الفنية التعبيرية التي قُدمت من خلال المراكز الثقافية للطلبة النازحين في مخيمي طولكرم ونور شمس خلال الفترة (2025)، من خلال تتبع التغيرات النفسية والانفعالية والسلوكية الملحوظة، واستقراء دلالات التعبير الفني بوصفه استجابة علاجية غير لفظية للصدمة المستمرة، كما يستند التحليل إلى دراسات حالة معمقة وملاحظات ميدانية موثقة، دون السعي إلى تعميم إحصائي، وإنما إلى تفسير علمي معمق للظاهرة في سياقها الاجتماعي والثقافي.

6. مجتمع الدراسة:

يتمثل مجتمع الدراسة في الطلبة الفلسطينيين النازحين قسرًا في بيئات النزوح داخل المخيمات الفلسطينية، ولا سيما مخيمات طولكرم ونور شمس

وجنين، خلال فترة النزوح الممتدة عام 2025، والتي اتسمت بكونها حالة نزوح طويل الأمد ناتج عن اقتحامات متكررة، وتدمير واسع للبنية التحتية السكنية والتعليمية، وما رافق ذلك من فقدان الاستقرار المكاني والتعليمي.

ولا يُعرَّف مجتمع الدراسة في هذا البحث بوصفه مجتمعًا إحصائيًا قابلًا للحصر العددي أو التمثيل الكمي، بل يُقارب بوصفه مجتمعًا اجتماعيًا–نفسيًا يعيش خبرة مشتركة من الصدمة المستمرة (Continuous Trauma)، ويتقاطع أفراده في الخصائص السياقية العامة، مثل التعرض المتكرر لأحداث صادمة، والعيش في مراكز إيواء مؤقتة، والانقطاع أو الاضطراب في العملية التعليمية، وتراجع الشعور بالأمان الوجودي والهوية المكانية، ويُنظر إلى هذا المجتمع بوصفه إطارًا تحليليًا نوعيًا تُستقى منه أنماط التعبير الفني والاستجابات النفسية التي تُحلَّل في ضوء نظريات العلاج بالفن والصحة النفسية في حالات الطوارئ، دون الادعاء بتمثيل شامل أو تعميم إحصائي للنتائج، وبما ينسجم مع طبيعة الدراسة الوصفية التحليلية ومقاصدها التفسيرية.

7. حدود الدراسة (Limitations):

تتحدد حدود هذه الدراسة ضمن الأطر والمجالات التالية:

الحدود البشرية (Population Boundaries): تقتصر الدراسة على الطلبة الفلسطينيين النازحين نتيجة النزوح القسري خلال عام 2025 في مخيمات طولكرم ونور شمس وجنين، وتشمل المرحلتين الأساسية والثانوية، يستهدف البحث الأطفال واليافعين الذين تعرضوا لصدمات متعددة مثل الاقتحامات والهدم والنزوح المتكرر، وذلك لتحليل دور التربية الفنية كأداة لتعزيز الصمود النفسي، والتفريغ الانفعالي، وإعادة بناء الهوية المكانية.

الحدود المكانية (Spatial Boundaries): تركز الدراسة على المخيمات والمراكز الثقافية في محافظة طولكرم ومحيطها، مع التركيز على مخيمات طولكرم ونور شمس وجنين، تم اختيار هذه المناطق لكونها الأكثر تعرضًا للنزوح القسري والصدمة المستمرة، مما يتيح ملاحظة أثر التربية الفنية في دعم الصحة النفسية للطلبة النازحين.

الحدود الزمنية (Temporal Boundaries): تغطي الدراسة الفترة من يناير حتى ديسمبر 2025، والتي شهدت استمرار النزوح القسري واقتحامات متكررة، بالإضافة إلى تنفيذ سلسلة من برامج التربية الفنية والمبادرات الثقافية التي سمحت بتحليل أثرها النفسي والاجتماعي على الطلبة.

8. أدوات الدراسة:

تعتمد الدراسة على مجموعة من الأدوات النوعية التحليلية الملائمة لطبيعتها النظرية التحليلية ولخصوصية الوضع الفلسطيني القائم على النزوح القسري والصدمة المستمرة، دون استخدام أدوات قياس كمية أو اختبارات معيارية، وتشمل أدوات الدراسة ما يلي:

الملاحظة المنظمة غير التشاركية: استخدمت لرصد سلوكيات الطلبة النازحين أثناء مشاركتهم في الأنشطة الفنية المختلفة، بما في ذلك الرسم، التلوين، الجداريات، الدراما التعبيرية، والكتابة الإبداعية، مع التركيز على مؤشرات مثل طبيعة الخطوط والألوان، تكرار الرموز، شدة الحركة، ومستوى التفاعل الجماعي، باعتبارها دلائل غير لفظية على الحالة النفسية للطلبة.

تحليل النتاجات الفنية (Art Product Analysis): تم تحليل الأعمال الفنية التي أنتجها الطلبة لاستقراء الأبعاد النفسية والرمزية لتجربتهم، من خلال دراسة العناصر التشكيلية (اللون، الشكل، المساحة، الرمز، التكوين) وربطها بمفاهيم العلاج بالفن، لا سيما التفريغ الانفعالي، التسامي، وترميم الهوية المكانية.

تحليل دراسات الحالة (Case Studies) أظهرت نتائج تحليل دراسات الحالة، المعتمدة على بطاقة تحليل مضمون بصري–سردي، أن الأنشطة الفنية التعبيرية التي نُفذت ضمن مبادرات مركز العودة وجدايل الثقافي شكّلت مساحة رمزية آمنة للتفريغ الانفعالي لدى الطلبة النازحين من مخيمي طولكرم ونور شمس. وقد تمثلت أبرز المؤشرات في الانتقال التدريجي من رموز الفوضى والتشظي إلى تمثيلات بصرية تعكس محاولات إعادة بناء الإحساس بالمكان والهوية والانتماء، دون ادعاء قياس أثر نفسي أو تعميم إحصائي.

تحليل الوثائق والتقارير المؤسسية: شمل مراجعة تقارير وزارة الثقافة الفلسطينية والمراكز الثقافية الشريكة، بالإضافة إلى وثائق البرامج الفنية المنفذة خلال فترة النزوح (2025)، بهدف ربط الممارسة الميدانية بالإطار النظري وتوثيق الطابع المؤسسي للتدخلات الفنية كآلية دعم نفسي واجتماعي.

الإطار النظري التحليلي: تم توظيف الأدبيات العلمية الحديثة في مجالات التربية الفنية، والعلاج بالفن، والصحة النفسية في مناطق النزاع كأداة تفسيرية لتحليل المعطيات الميدانية وربطها بمفاهيم الصدمة المستمرة، الصمود النفسي، والتعبير غير اللفظي عن الخبرات الصادمة.

تتكامل هذه الأدوات لتشكّل منظومة تحليلية نوعية، تمكّن الباحث من دراسة دور التربية الفنية في تعزيز الصحة النفسية لدى الطلبة النازحين، بما يتوافق مع أهداف الدراسة ومنهجها الوصفي التحليلي، دون ادعاء القياس الكمي أو النتائج الإحصائية.

أولا: الإطار المفاهيمي النظري

ينطلق الإطار النظري لهذه الدراسة من رؤية تكاملية تجمع بين سيكولوجية الفن وعلوم التربية في حالات الطوارئ، ليفحص العلاقة الجدلية بين الفعل الإبداعي والتعافي النفسي في بيئات النزوح القسري، إن الأساس المعرفي الذي يقوم عليه هذا الإطار يستند إلى فرضية مفادها أن الفن في سياق النزاع الفلسطيني المعاصر (2025) ليس مجرد وسيلة للمحاكاة الجمالية، بل هو "نظام لغوي بديل" يتيح للطلبة إعادة بناء واقعهم الداخلي الذي تحطم بفعل الاقتلاع المكاني، ويؤصل لمفهوم النزوح القسري في المجتمع الفلسطيني، ليس كحالة انتقال جغرافي فحسب، بل كصدمة وجودية تؤدي إلى "تشتت الهوية" وفقدان المركز النفسي، وما يترتب على ذلك من قلق مستمر واضطرابات نفسية، لذلك نحن بحاجة للعلاج بالفن (كالتحليل النفسي ونظرية التسامي)، مع التركيز على دور الفن في تحقيق "التفريغ الانفعالي" (Catharsis)، وكيف يتحول العمل الفني إلى "مساحة انتقالية" (Transitional Space) تمنح الطالب شعورًا بالأمان والسيطرة المفقودة في الواقع الخارجي، مع البحث في خصوصية الصحة النفسية الفلسطينية، التي تتجاوز المفهوم التقليدي للصحة لتصبح مرادفًا لـ "الصمود النفسي" (Resilience) وسنناقش هنا كيف تساهم التربية الفنية في تفعيل آليات الدفاع الإيجابية لدى الطلبة، وتحويل الصدمة

البصرية الناتجة عن الحرب إلى طاقة إبداعية تعيد ربطهم بالماضي (الهوية) والمستقبل (الأمل).

إن الهدف الجوهري من هذا التأصيل النظري هو تقديم فهم عميق لكيفية عمل "الريشة والقلم" كأدوات ترميمية للأرواح في "خيمة الصف"، وتحويل العملية التعليمية في مخيمات النزوح من تلقين معرفي إلى تجربة استشفائية شاملة تعزز قدرة الطالب على التكيف والمقاومة النفسية.

– التربية الفنية (Art Education): هي العملية التعليمية التي تهدف إلى تطوير قدرات الطالب على التعبير الفني، والإبداع البصري، وتحليل الرموز، واستخدام الفن كوسيلة للتواصل والتفريغ الانفعالي (Eisner, 2002, P :45).

– الصدمة المستمرة (Continuous Trauma): هي الصدمة الناتجة عن تعرض الفرد لأحداث صادمة متكررة أو طويلة الأمد، مثل الاقتحامات والهدم والنزوح، ما يمنع التعافي النفسي الطبيعي ويزيد من حدة اضطرابات القلق والتوتر (Herman, 1992,p:33).

– اضطراب ما بعد الصدمة (Post–Traumatic Stress Disorder – PTSD): هو حالة نفسية تنتج عن التعرض لأحداث صادمة، وتتمثل أعراضه في القلق المفرط، الكوابيس، الانسحاب الاجتماعي، وصعوبة التحكم بالانفعالات (American Psychiatric Association, 2013, p:271).

– الصحة النفسية: (Mental Health) تشير إلى الحالة الذهنية والعاطفية للفرد، بما في ذلك القدرة على مواجهة الضغوط والتكيف مع الصدمات، والتحكم في الانفعالات، والشعور بالرضا عن الذات، (WHO ,2021, p:12).

– الطلبة النازحون (Displaced Students): هم الطلبة الذين فقدوا مساكنهم قسرا تحت قوة السلاح لاحتلال أرضه نتيجة الحروب، مما يجعلهم عرضة لصدمات نفسية مستمرة، ويحد من استقرارهم التعليمي والاجتماعي (UNICEF, 2020,p:8).

–مفهوم النزوح القسري وآثاره النفسية: النزوح ليس مجرد انتقال مكاني، بل هو اقتلاع للجذور النفسية والاجتماعية. تشمل الآثار: القلق الوجودي، فقدان الهوية المكانية، وتفكك الروابط الاجتماعية (UNICEF, 2020,p:8).

ثانيا: دور التربية الفنية في الدعم النفسي

– الفن كوسيلة للتفريغ الانفعالي (Catharsis) يعتمد البحث هنا على نظرية التحليل النفسي (فرويد، يونغ) في تفسير الرموز الفنية كطريقة لإخراج الصدمات المخزنة في العقل الباطن.

– الفن وإعادة بناء الهوية (Identity Reconstruction) يساعد الرسم والأشغال اليدوية الطالب النازح على استعادة صورة "البيت" و"الوطن" المفقود، مما يخلق جسرًا ذهنيًا بين الماضي والحاضر والمستقبل.

– تنمية الكفاءة الذاتية (Self–Efficacy) من خلال القدرة على خلق شيء جميل وسط الركام، يستعيد الطالب شعوره بالسيطرة على واقعه، وهو أمر حيوي لمواجهة مشاعر العجز الناتجة عن النزوح.

ثالثا: تحليل المجتمع الفلسطيني (دراسة الحالة 2025)

في هذا الجزء يتطلب التوسع في جمع البيانات النوعية) تحليل رسومات الأطفال النازحين والتركيز على سيكولوجية الألوان (استخدام الأسود والأحمر)،

واستخدام الرموز (خيمة، طائرة، مفتاح العودة)، في ظل وجود التحديات الميدانية وهو نقص الأدوات (كرتون وألوان)، وغياب البيئة الصفية المستقرة في مراكز الإيواء، مع الوضع القائم ممكن استخدام الفن البيئي أي استخدام مواد من الطبيعة المحيطة أو الركام لتحويل القبح إلى جمال (التعافي عبر الفن)، ورسم جداريات بمشاركات جماعية لتعزيز الشعور بالانتماء الجماعي وتخفيف العزلة، وممكن بأسلوب السرد القصصي ومن ثم رسم قصتك قبل النزوح وبعده.

نظريات العلاج بالفن وتطبيقاتها في سياق النزوح (دراسة تحليلية)

1- نظرية التحليل النفسي للعلاج بالفن (Psychoanalytic Art Therapy): تعتبر مارغريت نامبورغ (Margaret Naumburg) مؤسسة هذا الاتجاه، حيث ترى أن الصور الفنية هي وسيلة للتواصل بين العقل الواعي واللاشعور، في حالات النزوح القسري، تُخزن الصدمات كصور بصرية مرعبة في اللاشعور تعجز اللغة عن فك شفرتها، حيث يساعد الرسم الطالب النازح على "إسقاط" هذه الصور المخزنة على الورق، مما يقلل من ضغطها الداخلي، إن عملية تحويل "الصدمة غير المرئية" إلى "أثر مرئي" هي الخطوة الأولى في التحكم بها (القريوتي، 2018، ص. 42)، (Naumburg, 1966, p. 85).

2- نظرية العلاج بالفن كعملية شفائية (Art as Therapy) أسستها إديث كرامر (Edith Kramer)، وتركز على أن "العملية الإبداعية" نفسها هي العلاج، وليس بالضرورة تحليل النتائج، تؤكد كرامر على مفهوم "التسامي (Sublimation)، أي تحويل الدوافع العدوانية أو المدمرة الناتجة عن الحرب إلى نتاج جمالي، فإن الانخراط في "صنع" شيء ما وسط الدمار (مثل التشكيل بالطين أو بناء نماذج من الكرتون) يعيد صياغة مفهوم "الأنا" لديهم من ضحية محطمة إلى إنسان مبدع " (Kramer, 2000, p. 112).

3- نموذج الاستمرارية العلاجية التعبيرية (Expressive Therapies Continuum – ETC) يعد هذا النموذج من أحدث الأطر النظري، ويقسم التفاعل مع الفن إلى مستويات (الحسي، والإدراكي، والرمزي، يبدأ المعلم التطبيق بالمستوى "الحسي" (ملمس الألوان والورق) لتهدئة الجهاز العصبي المستفز والمثيرة للجدل للطالب وصولا لمرحلة الإدراك الواقع المعاش، ثم ينتقل للمستوى الرسم والتنفيذ "الرمزي" لتمثيل أحلام العودة والبيوت المفقودة (Hinz, 2020, p. 54)، (Lusebrink, 2010, p. 210).

4- نظرية العلاج بالفن المرتكزة على الصدمة (Trauma-Informed Art Therapy): تستند إلى علم الأعصاب، وترى أن الصدمة تُعطل الفص الأيسر للدماغ (المسؤول عن اللغة) وتنشط الفص الأيمن (المسؤول عن الصور والعواطف)، والفن هو "الجسر" الذي يربط بين فصي الدماغ؛ فهو يسمح للطالب بالتعبير عن المشاعر (فص أيمن) ثم تسمية هذه المشاعر وفهمها (فص أيسر)، وهو ما يساعد في معالجة اضطراب ما بعد الصدمة (PTSD) الناتج عن التهجير (Malchiodi, 2020, p. 18).

5- نظرية الصمود النفسي والمقاومة الجمالية (Resilience & Aesthetic Resistance): في المجتمع الفلسطيني تحديدًا، يرتبط الفن بالهوية، أن الفن في مناطق النزوح ليس ترفًا، بل هو "فعل

صمود"، ورسم الرموز الوطنية (المفتاح، وشجرة الزيتون والكوفية) داخل خيمة النزوح يعمل كـ "درع نفسي" يحمي الطالب من ذوبان هويته بفعل فقدان المكان، (حسين، 2021، ص. 58)، (حمدان، 2021، ص. 14).

تطبيق نظريات العلاج

تطبيق نظريات العلاج بالفن داخل "خيمة الصف" في مخيمات النزوح (مثل طولكرم ونور شمس) يتطلب من المعلم تحويل الإمكانيات البسيطة إلى أدوات علاجية استراتيجية. فيما يلي شرح تطبيقي لكيفية تنفيذ هذه النظريات بالحد الأدنى من الموارد:

1- تطبيق نظرية "التفريغ الانفعالي" (بأدوات بديلة) في مركز الإيواء، قد لا تتوفر ألوان زيتية أو لوحات فاخرة، لذا يطبق المعلم النظرية كالآتي، باستخدام الفحم (من بقايا الحطب المستخدم للتدفئة) أو أقلام الرصاص البسيطة، يتم تنفيذ النشاط "رسم الظلال والخطوط العشوائية"، ويطلب المعلم من الطلبة تفريغ طاقة الغضب أو الخوف من خلال خطوط قوية وسريعة على ورق الدفاتر العادي أو حتى كرتون المساعدات الغذائية، والتي تهدف الى تحويل المشاعر الكامنة إلى حركة جسدية (الرسم) وأثر بصري، مما يقلل من الاحتقان النفسي الداخلي.

2- تطبيق نظرية "التعريض المتدرج" (عبر الفن القصصي) تُستخدم لمعالجة صدمة النزوح والاقتحامات المتكررة باستخدام أقلام تلوين خشبية أو شمعية بسيطة، من خلال "القصة المصورة من ثلاثة إطارات"، يطلب المعلم رسم ثلاث صور: (1) بيتي قبل النزوح، (2) لحظة الخروج، (3) كيف أتخيل مكاني الآن، وتهدف مساعدة الدماغ على تنظيم ذكرى الصدمة المشتتة ووضعها في سياق زمني (ماضٍ، حاضر، مستقبل)، مما يقلل من سطوة الذكرات المأساوية للاقتحامات والنزوح.

3- تطبيق نظرية "الاستمرارية الحسية" (الفن البيئي) عند نفاد الأوراق والألوان، يتحول المعلم إلى البيئة المحيطة بالمراكز، باستخدام الرمال، الحصى، الطين الناتج عن المطر، والعمل على "النحت الطيني أو الرسم على الرمل"، ملمس الطين البارد أو ملمس الرمل يوفر "تنبيهات حسية" (Sensory Input) تساعد في تهدئة الجهاز العصبي المستفز، والهدف الوصول إلى حالة من الاسترخاء الحسي بعيدًا عن ضجيج الطائرات أو أصوات الانفجارات، وهي "الاستمرارية العلاجية" في أبسط صورها.

4- تطبيق نظرية "إعادة بناء الهوية" (الفن الجماعي) لمواجهة الشعور بالضياع وفقدان "البيت" و"المكان"، باستخدام قصاصات القماش من الملابس القديمة، خيوط، غراء بسيط (أو عجينة طحين وماء)، المشاركة الجماعية في رسم أو تكوين "خارطة المخيم الكبيرة" أو "جدارية الصمود"، يساهم كل طالب بصنع جزء صغير يمثل خيمته أو حلمه بالعودة لبيته في المخيم، وتُجمع الأجزاء على قطعة قماش كبيرة (خيش أو شادر)، وتهدف إلى تعزيز الشعور بالانتماء للجماعة (Social Support) وتأكيد أن الهوية الفلسطينية باقية رغم تحطم المكان المادي.

دور المعلم كشاهد آمن (Safe Witness) بعيدًا عن الأنشطة، يطبق المعلم النظرية الإنسانية من خلال:

- الاستماع البصري: لا يطلب المعلم من الطالب تفسير ما رسمه قسرًا، بل يكتفي بالقول: "أرى

أنك استخدمت الكثير من اللون الأحمر هنا، هل ترغب في إخباري عن هذا الشعور؟".

- توفير بيئة "اللاحكم": في مركز النزوح، لا يوجد رسم "صحيح" ورسم "خاطئ". القبول المطلق لكل ما ينتجه الطفل هو ما يمنحه الأمان النفسي المفقود في الخارج.
- الخلاصة التطبيقية للمعلم: إن نجاح المعلم في عام 2025 داخل مراكز النزوح لأبناء المخيمات طولكرم ونور شمس لا يُقاس بجودة اللوحات الفنية، بل بقدرة هذه اللوحات على أن تكون "صرخة صامتة" تخرج من صدر الطفل لتستقر على الورق، وبقدرته على تحويل "الركام" إلى مادة خام للحلم والصمود.

الدراسات السابقة:

1 – تُعد دراسة (أبو دف وكباجة، 2020) من المراجع العربية المحورية في هذا المجال، حيث حملت عنوان "دور الفن التشكيلي في خفض حدة التوتر النفسي لدى الأطفال المتضررين من الحروب في محافظات غزة"، وهدفت الدراسة بشكل رئيسي إلى توظيف الفن التشكيلي كآلية للتفريغ الانفعالي (Catharsis) لدى أطفال قطاع غزة الذين تعرضوا لجولات متلاحقة من التصعيد العسكري والعدوان، وخلصت نتائج الدراسة إلى أن الانخراط في ممارسة الرسم الحر ساهم بفعالية في خفض مستويات القلق والتوتر النفسي لدى العينة المستهدفة بنسبة إحصائية كبيرة؛ حيث وفر الفن لغة رمزية مكنت الأطفال من إسقاط مشاعرهم الدفينة على الورق، كما لاحظ الباحث في الدراسة استخدامًا مكثفًا لرموز بصرية مزدوجة؛ فمن جهة سادت رموز تعبر عن "الفقد والدمار" (كاستخدام الألوان القاتمة ورسم البيوت المهدمة)، ومن جهة أخرى برزت رموز تعبر عن "الأمل والمقاومة" (كأشجار الزيتون والعلم الفلسطيني ومفتاح العودة)، وهو ما يتسق مع فرضيات البحث الحالي حول دور الفن في ترميم الروح وبناء الصمود النفسي وسط الأزمات. (أبو دف وكباجة، 2020، ص. 115).

2– تُعد دراسة (حمدان، 2021) المعنونة بـ "التربية الفنية والصحة النفسية في المناطق المهمشة" من الدراسات المحلية الهامة التي ربطت بين الممارسة الفنية المنهجية والمناعة النفسية في المجتمع الفلسطيني؛ حيث ركزت على تحليل العلاقة بين الانخراط في الأنشطة الفنية وتنمية مستوى الصمود والصلابة النفسية لدى طلبة المدارس الواقعة في مناطق التماس القريبة من جدار الفصل العنصري والمستوطنات، وقد خلصت الدراسة إلى نتائج جوهرية تؤكد أن التربية الفنية تساهم في تعزيز مفهوم "الكفاءة الذاتية" لدى الطلبة، من خلال منحهم مساحة آمنة لاتخاذ القرار والتحكم في الأدوات والألوان، وهو ما يولد لديهم شعورًا بـ "السيطرة على البيئة" كتعويض نفسي عن انعدام السيطرة في الواقع الخارجي المفروض بفعل الجدار والاستيطان، هذا الشعور بالكفاءة والقدرة الإبداعية يعمل كدرع واقٍ يرفع من مستوى الصلابة النفسية للطلبة، مما يجعلهم أكثر قدرة على التكيف ومواصلة التعلم تحت الضغوط المستمرة، وهو ما يتقاطع بشكل مباشر مع أهداف الدراسة الحالية في مخيمات طولكرم ونور شمس لعام 2025. (حمدان، 2021، ص. 14).

3– تُعد دراسة (شعت، 2023)، المعنونة بـ "أثر العلاج بالفن في تخفيف اضطراب ما بعد الصدمة (PTSD)"، من الدراسات النوعية الحديثة التي بحثت في فاعلية برامج التدخل الفني الجماعي الموجهة

للنازحين في المخيمات الفلسطينية؛ حيث ركزت على قياس مدى استجابة الأفراد المكلومين للأنشطة الفنية التشاركية كأداة سريرية وتربوية خافضة للتوتر، وخلصت نتائج الدراسة إلى أن الفن الجماعي (مثل رسم الجداريات والتشكيل المشترك) يمتلك قدرة فائقة على كسر العزلة الاجتماعية التي تفرضها الصدمة على النازح؛ إذ يعمل العمل الفني كمنصة للتفاعل الوجداني الذي يحول الألم الفردي المنعزل إلى تجربة جمعية مشتركة تعزز مسارات الشفاء الجمعي، كما أكدت الدراسة أن هذه الاستراتيجية لا تخفف فقط من أعراض اضطراب ما بعد الصدمة، بل تعيد بناء شبكة الدعم الاجتماعي داخل المخيم، وهو ما ينسجم مع واقع التدخلات الفنية التي شهدتها محافظة طولكرم في عام 2025 لترميم النسيج الاجتماعي للطلبة النازحين. (شعت، 2023، ص. 88).

4- تُعد دراسة (Roberts,2018)، المعنونة بـ "العلاج بالفن كجسر في مخيمات اللاجئين السوريين"، من الدراسات الدولية الهامة التي طبقت في سياق لجوء مشابه للسياق الفلسطيني؛ حيث ركزت على الأطفال السوريين النازحين في مخيم "الزعتري" بالأردن، وخلصت نتائج الدراسة إلى أن الفن يعمل كـ "جسر للتواصل غير اللفظي"، موفرًا وسيلة تعبيرية آمنة للأطفال الذين يعانون من "خرس الصدمة" أو عدم القدرة على صياغة تجاربهم لغويًا، كما وجدت الدراسة أن الانخراط في الأنشطة الفنية ساعد الأطفال بشكل فعال على معالجة ذكريات النزوح القسرية واضطرابات الذاكرة الصدمية، من خلال تحويل الصور الذهنية المؤلمة إلى نتاجات بصرية ملموسة، مما ساهم في خفض مستويات القلق والتوتر النفسي لديهم بنسبة وصلت إلى 40% وتتقاطع هذه النتائج مع واقع الطلبة النازحين في مخيمات طولكرم ونور شمس، حيث تبرز الحاجة للفن كأداة لتفكيك ثقل الذكريات التي يصعب التحدث عنها. (Roberts et al, 2018, p. 45).

5- تُعد دراسة (Malchiodi, 2020)، المعنونة بـ "العلاج بالفن المستند إلى الصدمات"، من المراجع العلمية الرائدة التي أحدثت نقلة نوعية في فهم آليات التعافي البصري، حيث نجحت في الربط الوثيق بين علم الأعصاب والممارسة الفنية في مناطق الحروب والنزاعات.

وتؤكد "مالكيودي" في نتائج دراستها أن الأنشطة الفنية الحسية—مثل العمل بالطين أو التشكيل اليدوي—لا تقتصر قيمتها على الجانب الجمالي، بل تمتد لتشمل ممارسات فيسيولوجية تعتمد تقنيات التنفس العميق واليقظة الذهنية أثناء العمل الإبداعي، وتعمل هذه التقنيات بشكل مباشر على تهدئة الجهاز العصبي المتوتر لاسيما "اللوزة الدماغية" (Amygdala) المسؤولة عن استجابة الخوف، بالتوازي مع تقوية القشرة الجبهية المسؤولة عن التحكم العاطفي والتفكير المنطقي، وهذا التوازن العصبي يجعل من التربية الفنية ضرورة قصوى وحتمية للطلبة الرازحين تحت وطأة القصف والنزوح القسري في فلسطين لعام 2025، كونها تساعدهم على استعادة الاستقرار الفسيولوجي والنفسي وسط بيئة تتسم بالتهديد الوجودي المستمر.

من خلال الاستعراض النقدي للدراسات السابقة، يتبين أن هناك فجوة زمنية ومكانية جوهرية تميز الدراسة الحالية؛ فمعظم الأبحاث السابقة—مثل دراسات

(Roberts et al., 2018) في الأردن ودراسة (أبو دف وكباجة، 2020) في غزة—تناولت نزوحًا "مستقرًا" نسبيًا في مخيمات دائمة، مما أتاح مساحة لبرامج علاجية طويلة الأمد.

على النقيض من ذلك، تتناول هذه الدراسة واقع النزوح النشط والمستمر في فلسطين لعام 2025 (طولكرم ونور شمس)، حيث الصدمة متكررة وغير منتهية، مما يستوجب منهجية مختلفة للتعامل مع "الصدمة المستمرة" ، وتتفرد هذه الدراسة بربط الفن بـ "المقاومة الجمالية"، حيث لا يكون الفن مجرد أداة للتعافي النفسي الفردي فقط، بل لتثبيت الهوية الوطنية المهددة بالنزوح القسري عبر الرموز البصرية ، ورغم الفروقات المجتمعية، فقد اتفقت الدراسات السابقة بالإجماع على أن الفن هو الأداة الأكثر أمانًا ومرونة للتدخل (Safe Intervention) للتعامل مع الأطفال في حالات الطوارئ القصوى نظرًا لعدم حاجته لمهارات لغوية معقدة، وهو ما يدعم المنهجية المعتمدة في هذا البحث .

رابعا: تحليل مقارن للاستجابات بناءً على المعطيات الميدانية: أظهرت الملاحظات الميدانية في المجتمع الفلسطيني خلال عام 2025، وبشكل خاص في مناطق التماس والنزوح مثل مخيمات طولكرم ونور شمس، وجود فروق واضحة في استجابات الطلبة الذكور والإناث تجاه الأنشطة الفنية التعبيرية وفق نظريات العلاج بالفن. وتشير هذه الفروق إلى أنها ليست طبيعية فطرية، بل ناتجة عن توقعات اجتماعية متوارثة وآليات دفاع نفسية مكتسبة تفرضها ظروف النزوح المستمرة، والتهديد الدائم للأمن الشخصي والمكاني.

فقد لوحظ أن الذكور يميلون إلى توظيف الرموز المتعلقة بالقوة والسيادة، مثل الخطوط القوية والأشكال الصارمة، كآلية للدفاع النفسي وتعزيز الشعور بالتحكم في بيئة متقلبة. بينما تركز الإناث على الرموز المرتبطة بالهوية المكانية والأمان الأسري، مثل البيوت، الأزقة، والألوان الدافئة، كاستراتيجية لترميم شعورهن بالأمان النفسي والتواصل الاجتماعي.

تعكس هذه النتائج أهمية فهم السياق الاجتماعي والنفسي عند تصميم برامج التربية الفنية في مناطق النزوح، إذ إن توجيه الأنشطة الفنية بما يتوافق مع أنماط الاستجابة المختلفة يعزز فعالية التدخلات النفسية ويُسهم في بناء الصمود النفسي والاجتماعي لدى الطلبة النازحين.

تحليل استجابات الطلبة النازحين

أظهرت الملاحظات الميدانية في مخيمات طولكرم ونور شمس أن الطلبة الذكور والإناث يتفاعلون مع الأنشطة الفنية التعبيرية بطرق نوعية متميزة. هذه الاستجابات ليست فطرية فحسب، بل هي نتاج توقعات اجتماعية وآليات دفاع نفسي فرضتها ظروف النزوح المستمرة، حيث يستخدم الطلبة الفن أداة لمعالجة الصدمة، سواء عبر التفريغ الانفعالي أو إعادة بناء الهوية أو تعزيز الصمود النفسي، كما لوحظ أن الأنشطة الفنية، بما في ذلك الجداريات الجماعية وورش الرسم الحر والكتابة الإبداعية، لم تكن مجرد أداة ترفيهية، بل عملت كـ ملاذ نفسي مؤقت (Temporary Refuge)، يتيح للطلبة النازحين التحكم في بيئتهم الرمزية، والتعبير عن الألم والخوف بطريقة آمنة، مع إعادة بناء شعورهم بالهوية المكانية والارتباط الاجتماعي.

تحليل الاستجابات وفق نظريات العلاج بالفن

اعتمد التحليل على خمس نظريات رئيسة للعلاج بالفن، وهي: التفريغ الانفعالي، إعادة بناء الهوية،

الاستمرارية الحسية، الدعم الاجتماعي، والصمود النفسي، وقد أظهرت النتائج أن الذكور والإناث يستجيبون لكل نظرية بطرق مختلفة:

نظرية التفريغ الانفعالي (Catharsis):

الذكور: يميلون إلى التفريغ الحركي والعنيف، مثل الخطوط الحادة وضغط القلم على الورق، مع التركيز على تصوير أدوات الصدمة، بهدف إخراج الطاقة العدوانية المكبوتة الناتجة عن شعورهم بالعجز.

الإناث: يفضلن التفريغ الرمزي والعاطفي، عبر استخدام الألوان والمشاهد الحزينة للتعبير عن الفقد والحزن الداخلي، ليصبح الفن وسيلة للبكاء على الورق.

نظرية إعادة بناء الهوية (Identity Reconstruction):

الذكور: يركزون على الرموز الجمعية والسياسية، مثل الكوفية، خارطة فلسطين، وهو ما يعزز شعورهم بالقدرة والسيادة الذاتية ضمن بيئة النزوح.

الإناث: يركزن على الهوية المكانية والاجتماعية، عبر رسم البيوت المفقودة وتفاصيل الحياة الأسرية، بهدف استعادة الأمان الأسري وربط الذات بالمكان.

نظرية الاستمرارية الحسية (Sensory Continuum):

الذكور: يميلون للأنشطة التي تتطلب البناء والتفكيك، مثل النحت بالطين أو نماذج الكرتون، لتلبية حاجتهم للسيطرة على البيئة المحيطة.

الإناث: يفضلن الأنشطة الدقيقة والناعمة، مثل التظليل ودمج الألوان والتطريز، حيث توفر لهن حالة من الاسترخاء الذاتي والتنويم الحسي.

الدعم الاجتماعي (Social Support Theory):

الذكور: تبدأ استجابتهم بصورة تنافسية، لكنها تتحول إلى تعاون عند العمل على جداريات جماعية، مما يقلل شعورهم بالعزلة ويخلق رابطة أخوة في المعاناة.

الإناث: يظهرن مشاركة عالية منذ البداية، مع الحديث أثناء الرسم ومشاركة الأدوات والتعليق الإيجابي، ليصبح الصف الفني مساحة دعم نفسي جماعي غير رسمي.

الصمود النفسي ومعالجة الصدمة (Psychological Resilience and Tra Management):

الذكور: يستخدمون الفن كأداة هجومية نضالية للتعبير عن القوة والمواجهة، ما يحميهم من الانغماس في دور الضحية السلبية.

"الإناث: يستخدمن الفن كوسيلة احتواء نفسي، تسمح لهن بالتعبير عن الألم وتحويله إلى تجارب جمالية تعزز مرونتهن النفسية وقدرتهن على التعامل مع الصدمة." داخل الصف.

تشير هذه الاستجابات إلى توجهات الذكور إلى الفن الذي يؤكد الفعل والسيادة، بينما تميل الإناث نحو الفن الذي يؤكد الارتباط والترميم، ويبرز دور المعلم في موازنة هذه الاستجابات، عبر السماح للذكور بتفريغ غضبهم وللإناث بترميم حزنهن، محولًا الصف إلى بوتقة تصهر الآلام الفردية في صمود وطني وجمعي.

وبهذا، تؤكد الدراسة أن التربية الفنية ليست ترفًا في سياق النزوح، بل أداة استراتيجية لدعم الصحة النفسية، تعزيز الصمود، وإعادة بناء الهوية المكانية للطلبة النازحين، مع توفير وسيلة للتعبير عن

الصدمات المعقدة التي لا يمكن للكلمات وحدها وصفها.

خامسا: التدخلات الثقافية والفنية كآلية للاستجابة النفسية في مراكز النزوح من مخيمات طولكرم ونور شمس: تحليل للدور المؤسساتي ودراسات حالة ميدانية (2024–2025)

اضطلعت وزارة الثقافة الفلسطينية والمراكز الثقافية الشريكة في محافظة طولكرم بدورٍ استراتيجي في مواجهة الآثار النفسية والاجتماعية المترتبة على سياسات النزوح القسري والاقتحامات المتكررة التي استهدفت مخيمي طولكرم ونور شمس والمناطق المحاذية لهما. وقد اتخذ هذا الدور شكل تدخلات بنيوية استهدفت الطلبة النازحين الذين تعرضوا لصدمات مستمرة تجاوزت مدتها 326 يومًا من النزوح النشط، مسبوقةً بسلسلة من الاقتحامات العسكرية التي أحدثت شروخًا في الشعور بالأمان الاستاتيكي لدى الأطفال.

ويمكن تحليل هذه التدخلات وفق المحاور الأكاديمية التالية:

- استراتيجيات التفريغ الانفعالي (Catharsis Strategies):

نظمت المؤسسات الثقافية ورشًا فنية متخصصة اعتمدت على "سيكولوجية الألوان" والرسم الحر، لتمكين الطلبة النازحين من تحويل شحنات القلق المخزنة إلى نتاجات بصرية، هذا النوع من التدخل ساعد في خفض حدة "الاستثارة الفسيولوجية" الناتجة عن الذاكرة السمعية والبصرية للاقتحامات.

- المقاومة الجمالية وتعزيز الهوية (Aesthetic Resistance):

برزت مبادرات الجداريات الفنية في مناطق النزوح كأداة لإعادة بناء الهوية المكانية (Spatial Identity) فمن خلال تزيين جدران مراكز الإيواء والمساحات العامة بإنتاجات الطلبة، تم تحويل بيئة النزوح من بيئة طاردة وغريبة إلى بيئة مألوفة، مما عزز من مستويات الصمود النفسي (Resilience) لدى المشاركين.

- الفنون الأدائية والدراما كعلاج (Drama Therapy):

شكلت نشاطات الدراما والمسرح وسيلة للمحاكاة العلاجية؛ حيث أتاحت للطلبة إعادة تمثيل أدوار القوة والمواجهة في بيئة آمنة، مما ساهم في استعادة الكفاءة الذاتية (Self–Efficacy) وتحطيم صورة "الضحية السلبية التي يفرضها واقع النزوح.

- الكتابة الإبداعية وتوثيق الصدمة (Narrative Medicine):

استهدفت ورش الكتابة الإبداعية تطوير قدرة الطلبة على بناء سردية شخصية لتجربة النزوح، إن الانتقال من مرحلة الصدمة الصامتة إلى مرحلة النص المكتوب يُعد من أرقى مستويات المعالجة النفسية، حيث يساعد الطالب على تنظيم مشاعره المشتتة ووضعها في سياق منطقي ومفهوم.

سادسا: التدخلات الواقعية من مخيمي طولكرم ونور شمس تبرز دور التربية الفنية في المعالجة المؤقتة من آثار النزوح القسري بوصفها شواهد تحليلية على دور التربية الفنية في المعالجة النفسية المؤقتة لآثار النزوح القسري، تجدر الإشارة منهجيًا إلى أن هذا البحث لا يعتمد على جداول بيانات أو أدوات قياس كمية، ولا يسعى إلى اختبار فروض إحصائية، بل ينطلق من تحليل نوعي نظري مدعوم بشواهد ميدانية

وصفية (Illustrative Cases) بوصفها أمثلة تفسيرية تعزز الطرح النظري، وتُبرز الكيفية التي تُسهم بها التربية الفنية في التخفيف المؤقت من الآثار النفسية للنزوح القسري والاقتحامات المتكررة في المجتمع الفلسطيني.

في هذا الإطار، تبرز التدخلات الفنية التي نُفذت في مراكز الايواء لسكان مخيمي طولكرم ونور شمس بوصفها ممارسات نفسية–تربوية واقعية تؤكد الدور العلاجي الوقائي للفنون، لا على مستوى الفرد فقط، بل على مستوى الجماعة والهوية المكانية.:

حالة "شذى": مواجهة الخوف عبر الفن (مخيم نور شمس)

تعيش شذى في مخيم نور شمس الذي تعرض لعمليات تهجير واسعة وحصار ممتد لأكثر من 300 يومًا وتدمير وهدم جميع البنية التحتية وتدمير عدد كبير من المنازل التي تضم المئات من العائلات النازحة من المخيم، شاركت في برامج "الفنون التعبيرية" التي نُظمت في مراكز الإيواء (مثل مدرسة عبد الرحيم الموحد) التي استقبلت العائلات النازحة من المخيم، استُخدمت قصة "الطائرة" كأداة تحليلية بصرية، حيث طُلب من الأطفال رسم الطائرة وتحويلها من مصدر للرعب إلى رمز آخر، ساعد هذا النشاط شذى وأقرانها على التفريغ الانفعالي وتقليل حدة التوتر الناتج عن أصوات الانفجارات.

مبادرة "Pain into Power": جداريات لأطفال من مركز العودة مخيم طولكرم

في يناير مطلع عام 2025، نُفذ مشروع Shield الذي استهدف الشباب والأطفال في مخيمي طولكرم ونور شمس لتحويل الألم إلى قوة عبر الفن، تم رسم جداريات جماعية عن مناطق تعرضت للدمار في مركز العودة الثقافي، ساهمت هذه الجداريات في إعادة بناء "الهوية المكانية" للطلبة النازحين. بدلًا من رؤية الركام كعلامة على الفقد، أصبح الفن وسيلة لاستعادة ملكية المكان والشعور بالصمود (Resilience) والاتصال بالمجتمع.

ورشات الرسم الشتوية: معالجة الصدمة الجماعية

بعد اقتحامات واسعة أدت لإخلاء منازل وهدم بنايات سكنية (آخرها قرار هدم 25 بناية تأوي 100 عائلة في ديسمبر 2025)، نظمت وزارة الثقافة ورشات رسم لليافعين النازحين في المركز الثقافي لتنمية الطفل، وركزت الورشات على الأنشطة اللامنهجية كمتنفس نفسي ومساحة للبحث عن الذات، مع أن الطلاب تغيرت مدارسهم وبيوتهم وأصدقائهم كل شيء تغير عليهم بيئات جديده عمرها أقل من عام، لوحظ أن استخدام الألوان القوية والرسومات التي توثق الانتهاكات، ساعد الطلبة على تسليط الضوء بصمت على معاناتهم وتجاربهم التي يعجزون عن شرحها بالكلمات، وهو ما يُعرف في نظريات العلاج بالفن بالتعبير غير اللفظي عن الصدمة.

أنشطة التفريغ الانفعالي الجماعي

نظمت فرق الدعم النفسي في جمعيات (سواعد، والعودة، وجدايل) للثقافة والفنون سلسلة أنشطة تفاعلية استهدفت أطفال من المخيمات تضمنت تمارين تعبيرية حركية وفنية، هدفت الأنشطة إلى تعزيز الشعور بالأمان المفقود نتيجة النزوح المتكرر، أظهرت النتائج الميدانية أن الانخراط في اللعب الفني الجماعي يقلل من حدة العزلة الاجتماعية التي يفرضها الحصار والنزوح، وتُظهر هذه الحالات أن التربية الفنية التي تستهدف النازحين في

مناطق نزوحهم في القرى المحيطة وحارت المدينة من مخيمات طولكرم ونور شمس تعمل كملاذ مؤقت (Temporary Refuge) فهي توفر للطلبة النازحين استعادة السيطرة والقدرة على التحكم في الألوان والأشكال التي تعوض فقدان السيطرة على الواقع الخارجي، وتحويل الصدمة من مشاهد العدوان والاعتداءات والهدم والنزوح إلى نتاج جمالي يقلل من وطأة اضطراب ما بعد الصدمة (PTSD) ، الفن في هذه المخيمات يتجاوز العلاج الفردي ليصبح وسيلة لبناء المناعة النفسية والصمود الجمعي للمجتمع ككل.

ورشة السرد البصري

الطفل أحمد عمره 11 عامًا، نازح من مخيم نور شمس عانى من صمت اختياري وقلق ليلي حاد بعد تدمير منزله واقتحام المخيم المتكرر حتى التهجير والنزوح بداية ريب 2025، انخرط في ورشة السرد البصري التي نظمتها وزارة الثقافة في النادي الثقافي الرياضي، بدأ برسم خطوط حادة باللون الأسود تمثل الآليات العسكرية، ثم انتقل تدريجيًا بتوجيه من المنشط النفسي إلى استخدام الألوان الفاتحة لرسم "البيت المستقبلي، أظهرت ملاحظات الميسرين تحسنًا في قدرة الطفل على التواصل اللفظي وتفريغ شحنات الغضب عبر الرسم، مما يؤكد نظرية التسامي في العلاج بالفن.

مبادرة جدارية الصمود الجماعية في مدرسة خولة بنت الازور تموز/ 2025

بعد اقتحام واسع أدى لتهجير طالبات من المخيم، شاركت 30 طالبة في رسم جدارية على رول من الورق علق على جدار المدرسة ضمن نشاطات المخيم الصيفي واستمرت الجدارية معلقة حتى انتهاء فعاليات المخيم الصيفي عملت الجدارية كأداة للترميم الاجتماعي، من خلال دمج رموز المخيم (الأزقة، البيوت، المفتاح) مع عناصر الأمل، استعادت الطالبات شعورهن بـ السيادة المكانية، أثبتت هذه الحالة أن الفن الجماعي يقلل من الشعور بالاغتراب الناتج عن النزوح ويقوي النسيج الاجتماعي الممزق.

ورشة الكتابة الإبداعية حكايا النزوح

استهدفت اليافعين الذين شهدوا حصار المخيمين لأكثر من 300 يوم، ساهمت الورشة في تحويل الذكريات المشتتة والمؤلمة إلى نصوص أدبية، هذا الانتقال من الواقع الصورة الصادمة إلى الكلمة المكتوبة ومن ثم تحويل هذه النصوص الأدبية إلى أمنيات مرسومة، ساعد الطلبة على تنظيم استجاباتهم العاطفية، وهو ما يتفق مع معايير العلاج المعرفي السلوكي عبر الفنون.

الاستجابة المؤسساتية من خلال وزارة الثقافة والمراكز الشريكة تُظهر هذه الجهود المؤسساتية في محافظة طولكرم أن التربية الفنية والثقافية قد تحولت من دورها المعرفي التقليدي إلى "منصة حماية نفسية" (Psychosocial Protection Platform)، ففي ظل الاستهداف الممنهج للبنية التحتية التعليمية والمكانية، مثلت هذه النشاطات الملاذ الأخير للحفاظ على التوازن النفسي للطلبة، وتوفير أدوات صمود ثقافية تتحدى واقع النزوح القسري الذي طال أمده لأكثر من أحد عشر شهرًا متواصلًا، وشهدت محافظة طولكرم خلال فترة النزوح التي تجاوزت 326 يومًا (حتى ديسمبر 2025) استجابة ثقافية مكثفة قادتها وزارة الثقافة بالتعاون مع المراكز الثقافية المحلية، لم تكن هذه الأنشطة مجرد فعاليات ترفيهية، بل صُممت كبرامج "إسعاف نفسي أولي عبر الفنون، شملت هذه التدخلات ورش الرسم الحر، والجداريات الجماعية،

وأنشطة الدراما التفاعلية، والكتابة الإبداعية، والتي استهدفت الطلبة النازحين من مخيمي طولكرم ونور شمس، هدفت هذه البرامج إلى تحويل الصدمة البصرية الناتجة عن الاقتحامات المتكررة إلى نتاج إبداعي يقلل من حدة اضطراب ما بعد الصدمة، تؤكد هذه الحالات والتدخلات المؤسساتية في طولكرم لعام 2025 أن التربية الفنية في سياق النزوح الفلسطيني ليست ترفًا، بل هي ضرورة حمائية. إن استمرار هذه الأنشطة لأكثر من 11 شهرًا تحت ظروف الاقتحامات المتكررة جعل من الفن "مختبرًا للصمود"، حيث يتم إنتاج الأمل من رحم الركام، وتوثيق الحق في الحياة عبر الإبداع.

سابعا: النتائج والتوصيات (Results & Recommendations)

النتائج:

بناءً على التحليل النظري والملاحظات الميدانية للتدخلات النفسية في محافظة طولكرم حتى نهاية عام 2025، خلصت الدراسة إلى النتائج التالية:

التفريغ الانفعالي وإعادة تنظيم المشاعر: ساهمت أنشطة التربية الفنية في توفير قنوات آمنة للطلبة للتعبير عن الغضب والحزن الناتج عن الصدمات المستمرة، مع اختلاف أساليب التعبير بين الذكور (تفريغ هجومي وقوي) والإناث (تفريغ رمزي واحتضاني).

إعادة بناء الهوية المكانية والاجتماعية: ساعدت الفنون التعبيرية على ترميم شعور الطلبة بالهوية والانتماء، حيث ركز الذكور على الرموز السيادية والسياسية، بينما ركزت الإناث على الترابط الأسري والبيت المفقود، مما عزز الصمود النفسي والفكري لديهم.

تعزيز الصمود النفسي الجماعي وتقليل التوتر: أظهرت الملاحظات أن الأنشطة الفنية الجماعية والخاضعة لدعم مؤسساتي (وزارة الثقافة والمراكز الشريكة) قلّلت مستويات التوتر والقلق، ووفرت للطلبة النازحين مساحة آمنة لاستعادة السيطرة الذاتية وبناء دعم نفسي جماعي مستدام.

التوصيات:

بناءً على النتائج المستخلصة من واقع النزوح القسري في مخيمات طولكرم ونور شمس لعام 2025، تضع الدراسة التوصيات التالية كخارطة طريق لتعزيز الصمود النفسي للطلبة:

توسيع برامج التربية الفنية في المخيمات والمراكز الثقافية ينبغي لوزارة الثقافة والمراكز الشريكة استمرار تنظيم أنشطة فنية للطلبة النازحين (رسم، جداريات، مسرح، وكتابة إبداعية) مع الالتزام بالاستمرارية الزمنية لضمان تأثير طويل الأمد على الصمود النفسي.

تكييف الفنون التعبيرية وفق الفروق الفردية والجندرية، ينبغي مراعاة اختلاف أساليب التعبير الفني بين الذكور والإناث، حيث يميل الذكور للأنشطة الهجومية والرموز السيادية، بينما تركز الإناث على الترابط المكاني والأسري، لتعزيز فعالية تفريغ الصدمات النفسية بطريقة مناسبة لكل فئة.

دمج التربية الفنية ضمن استراتيجيات الدعم النفسي، ينبغي أن تُصبح الأنشطة الفنية جزءًا من منصات الدعم النفسي والاجتماعي في المخيمات، بالتعاون بين وزارة الثقافة، المدارس، والمراكز الثقافية، مع

إشراف أخصائيين نفسيين، لتقليل التوتر وتعزيز الصمود الجمعي.

المقترحات:

تدريب الميسرين والفنانين على العلاج بالفن، تطوير برامج تدريبية للميسرين والفنانين على أساسيات العلاج بالفن وتطبيقاته في بيئات النزوح، لزيادة دقة استهداف الأنشطة وفاعليتها في معالجة الصدمات النفسية.

توسيع البحث التطبيقي المستقبلي، ينبغي للمؤسسات الأكاديمية ومنظمات المجتمع المدني إجراء دراسات مستقبلية على عينات أكبر، واستخدام أدوات قياس كمية (مثل استبيانات التوتر والقلق) لتقييم أثر التربية الفنية على الصحة النفسية للطلبة في بيئات النزوح المختلفة.

الخاتمة:

تؤكد الدراسة أن التربية الفنية أداة استراتيجية لتعزيز الصحة النفسية والصمود لدى الطلبة الفلسطينيين النازحين، حيث تساعد الأنشطة التعبيرية (الرسم، الجداريات، الدراما، الكتابة الإبداعية) على التفريغ الانفعالي، استعادة الهوية المكانية، وتقوية المرونة النفسية الجماعية. أظهرت النتائج فروقًا نوعية بين الذكور والإناث في طرق التعبير الفني، مع ميل الذكور للرموز السيادية والإناث للترميم والارتباط الأسري.

المقترحات: مأسسة التربية الفنية ضمن برامج الدعم النفسي والاجتماعي في المخيمات، واستمرار وتوسيع أنشطة الرسم، الجداريات، الدراما، وورش الكتابة الإبداعية، تكييف الأنشطة وفق الفروق الفردية والجندرية لزيادة فاعليتها، تدريب الميسرين والفنانين على مبادئ العلاج بالفن وتطبيقها علميًا.

ثامنا: المراجع

- المراجع العربية:

[1] أبو دف، محمود وكباجة، ميسون. (2020). دور الفن التشكيلي في خفض حدة التوتر النفسي لدى الأطفال المتضررين من الحروب في محافظات غزة، مجلة جامعة فلسطين للأبحاث والدراسات، المجلد 10، العدد 2.

[2] الأونروا. (2025. تقرير الاستجابة الطارئة لخدمات التعليم والصحة النفسية في مخيمي طولكرم ونور شمس. متوفر عبر الموقع الرسمي للوكالة.

[3] تقارير ميدانية حقوقية (ديسمبر 2025). أوضاع النازحين والطلبة في مخيمات شمال الضفة الغربية: طولكرم، نور شمس، وجنين. مركز الحقوق والتعليم.

[4] الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني. (2025)، التقرير السنوي حول أوضاع الأطفال والطلبة في مخيمات الضفة الغربية وقطاع غزة.

[5] حسين، ج. س. (2021). دور تعليم الفنون في تعزيز المرونة النفسية بين الطلاب النازحين، مجلة الدراسات الإنسانية، 14(3).

[6] حمدان، محمد. (2021). التربية الفنية وأثرها في تعزيز الصمود النفسي لدى طلبة المدارس في المناطق المهمشة. المجلة الفلسطينية للتربية المفتوحة والتعلم عن بعد، المجلد 9، العدد 15، ص. 10–22.

[7] شعت، يحيى. (2022). فاعلية برنامج تدريبي قائم على الفن في تخفيف اضطراب ما بعد الصدمة (PTSD) لدى النازحين في المخيمات الفلسطينية. رسالة ماجستير، جامعة القدس.

[8] القريوتي، يوسف. (2018). سيكولوجية الفن والتربية الفنية: مدخل للعلاج بالفن. دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، ص. 40–65.

[9] منظمة الصحة العالمية (WHO). (2024). تحديات الصحة النفسية في الأرض الفلسطينية المحتلة في ظل النزوح القسري المستمر. جنيف.

[10] منظمة اليونيسيف (UNICEF). (2024). تقرير الاستجابة الطارئة للصحة النفسية والدعم النفسي الاجتماعي في فلسطين. القدس: مكتب اليونيسيف الإقليمي.

[11] وزارة التربية والتعليم الفلسطينية (2024). دليل التدخل التربوي والنفسي في حالات الطوارئ: الأنشطة الفنية واللامنهجية. رام الله، فلسطين.

[12] وزارة الثقافة الفلسطينية (2025). التقرير السنوي للمبادرات الثقافية ونشاطات التفريغ النفسي في محافظة طولكرم. رام الله، فلسطين.

References:

[1] American Psychiatric Association. (2013). Diagnostic and statistical manual of mental disorders (5th ed) Washington.

[2] Dalley, T. (2019). Art as Therapy: An Introduction to the Use of Art as a Therapeutic Technique. Routledge, London .

[3] Eisner, E. W. (2002). The arts and the creation of mind (Rev. ed.). Yale University Press.

[4] Herman, J. L. (1992). Trauma and recovery. Basic Books.

[5] Hinz, L. D. (2020). Expressive Therapies Continuum: A Framework for Using Art in Therapy (2nd ed.). Routledge, New York, pp. 50-78.

[6] Kalmanowitz, D., & Lloyd, D. (2023). Art Therapy in Context: Resilience and Relational Practice in Locations of Conflict and Disaster. Routledge.

[7] Kramer, E. (2000). Art as Therapy with Children. Jessica Kingsley Publishers, London, pp. 110-145.

[8] Lusebrink, V. B. (2010). The Expressive Therapies Continuum: A Framework for Art Therapy. American Art Therapy Association, 27(1), pp. 200-215.

[9] Malchiodi, C. A. (2020). Trauma and Expressive Arts Therapy: Brain, Body, and Imagination in the Healing Process. Guilford Press, pp. 12-40.

[10] Naumburg, M. (1966). Dynamically Oriented Art Therapy: Its Principles and Practice. Grune & Stratton, New York, pp. 80-95.

[11] Roberts, A. et al. (2018). Art Therapy as a Bridge in Syrian Refugee Camps. Journal of Mental Health and Psychosocial Support.

[12] UNICEF. (2020). Education and displacement in Palestine. United Nations Children's Fund.

[13] WHO. (2021). Mental health: Strengthening our response. World Health Organization.